هموم السلطان عبد الحميد الثاني وجهاز الجاسوسية في الدولة العثمانية

د جاسم محمد حسن*

يحسن بنا قبل الخوض في موضوع هموم السلطان عبد الحميد الثاني[1] ودورها في تأسيس جهاز جاسوسية ضخم أن نشير الى مسألة مهمة ، ألا وهي أن حكم السلطان عبد الحميد ، الذي استمر ٣٣ عاما بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٠٩ كان مزيجاً من جوانب مظلمة وأخرى مضيئة . وسيقتصر بحثنا على دراسة أحد الجوانب المظلمة ، التي غدت طابعاً مميزاً لحكم عبد الحميد وهي مخاوفه المفرطة التي حملته على تشكيل مؤسسة جاسوسية كبرى . تكاد المصادر التاريخية تجمع على أن الظروف التي تبوأ فيها السلطان عبد الحميد العرش كانت غاية في السوء . إذ كانت الدولة العثمانية تعاني من مصاعب خارجية ، كتأهب بعض الدول الأوربية للانقضاض عليها ، وتنديد بعضها الاخر بها الموجعة التي كالتها لبلغاريا ، التي كانت تحاول الافلات من قبضة الدولة العثمانية . كما كانت الأخيرة تقاسي من مشكلات داخلية أبرزها الثورات التي كانت تقوم ضدها في البلقان ، ومشكلة العجز المالي الناجمة عن بذخ السلاطين العثمانيين السابقين مثل السلطان عبد العزيز ١٨٦١ ـ ١٨٧٦ . إذ تجاوزت الديون التي بذمة الدولة على عهده مليارين ونصف مليار ليرة عثمانية[1] .

وبالاضافة إلى ذلك ، واجه عبد الحميد في مستهل حكمه مشكلة وجود بعض الشخصيات التي تثير قلقا في نفسه ، مثل مدحت باشا الذي كان له دور في تنصيبه على

(*) مدرس التاريخ الحديث بكلية التربية ـ جامعة الموصل .

العرش . وقد كان مدحت باشا بنظر عبد الحميد على رأس المسؤولين عن تنحية عمه السلطان عبد العزيز واخيه السلطان مراد الخامس .

ومهما يكن من أمرٍ فقد اضطر عبد الحميد تحت ضغط الظروف العصيبة التي وجد نفسه فيها إلى أن يسند لمدحت باشا منصب الصدارة العظمى في ١٩ كانون الاول سنة ١٨٧٦ ، ثم ما لبث أن اقصاه ونفاه إلى خارج الدولة في شباط من عام ١٨٧٧ .

وفي وسعنا ان نعزو اسباب الخلاف بين السلطان عبد الحميد ومدحت باشا إلى تباين نزعة كل منهما . فبينما كان الاول يحبذ نظام الحكم المطلق ، كان مدحت باشا من انصار النظام البرلماني الدستوري .

يضاف إلى ذلك أن مدحت باشا ـ كما تقول بعض الروايات ـ كان يحتفظ بوثيقة وقعها السلطان عبد الحميد ، قُبيل تنصيبه سلطانا ، تقضي بتنازله عن الحكم في حالة تماثل مراد الخامس (الذي خُلع عن العرش بسبب مرض عقلي ألمّ به) إلى الشفاء .

على أن ازاحة مدحت باشا من منصبه لم تضع نهاية لمتاعب عبد الحميد . إذ سبّب انصار مدحت باشا بعضا من الضيق لعبد الحميد . وفضلا عن ذلك ، كان بقاء السلطان المخلوع مراد الخامس حياً مثار استياء عبد الحميد نفسه ، حتى أنه لم يكن في وسع أي زائر لعبد الحميد أو مستخدم لديه أن يجرؤ على تذكيره . بذلك الوجود (البغيض)[٣] .

وقد جرت أكثر من محاولة لاعادة مراد الخامس إلى العرش ، كتلك التي قام بها علي سعاوي لكنها باءت بالفشل[٤] . كما تعرض ابن مراد الخامس وهو صلاح الدين البالغ من العمر عشر سنوات إلى عملية اختطاف ، إذ تم نقله إلى أوديسا ـ الواقعة الى الشمال الغربي من البحر الاسود ـ على متن باخرة حربية روسية ، اعدها السفير الروسي في استانبول ، وأُلقي القبض على المختطفين وعوقبوا[٥] .

غدا السلطان عبد الحميد عقب نفي مدحت باشا ، الحاكم الفعلي للدولة العثمانية ، لا سيما وأنه حل البرلمان في ١٤ شباط سنة ١٨٧٨ والذي لم يكن قد مضى على تأسيسه سوى فترة قصيرة . وبدأ بذلك حكمه الاستبدادي الذي استمر حتى اندلاع الثورة التي قادها أعضاء في جمعية الاتحاد والترقي في سنة ١٩٠٨ ضد عبد الحميد وأُعيد على أثرها العمل بالدستور .

وجدير بالذكر أن نظام عبد الحميد الاستبدادي واجه معارضة كانت تتصاعد بمرور الوقت ، استهدفت حياة عبد الحميد والاطاحة بنظام حكمه ولكشف تلك المعارضة . وللحد من نشاطها ، عمد عبد الحميد إلى تأسيس جهاز ضخم للجاسوسية ، كما لعبت

مخاوفه على حياته ، والتي غذاها طبعه المتشكك ، دوراً في زيادة الاعتماد على جهاز الجاسوسية بحيث غدا واحداً من معالم نظامه .

لقد كان قلق السلطان على حياته كبيراً إلى حد أصبح خوفه من الاغتيال بمثابة هاجس دائم[٦] . وغدا يشك بكل من حوله[٧] ، حتى ندمائه ووزرائه وجنرالاته[٨] . واعترف عبد الحميد في مذكراته بشيء من ذلك بقوله : « أن لا غرابة في أن يحذر كل الناس ، ويبتعد حتى عن أقرب المقربين[٩] . وتسربت مخاوف عبد الحميد إلى قصره الذي يقيم فيه وهو قصر (ضوله باغجة) فانتقل إلى قصر (يلدز) ، بعد أن زاد على بنائه وحصن أسواره وأكثر من جواسيسه[١٠] .

وحتى في قصره الجديد لم يهدأ روع عبد الحميد ، إذ كان يتوقع ـ حسبما رُوي ـ مغتالا خلف كل باب من أبواب غرف قصره ، ويخشى النوم[١١] . وعليه كان يمضي بعضاً من لياليه ساهراً حتى الصباح ، وأحياناً لم تذق عيناه طعم النوم ليلتين متتاليتين أو أكثر ، وكان خلال ذلك يتنقل من غرفة إلى أخرى ومن جناح إلى غيره يسترق السمع من وراء الأبواب أو يثقب الجدران استراقاً للبصر . بل قيل أنه كان يتسلل أحيانا إلى غرف الخدم الذين لم تقع أعينهم عليه من قبل فيهبون مذعورين ليروه واقفا يحملق فيهم وكأنه أحد الاشباح[١٢] .

ولعل من المفيد الاشارة إلى أن عبد الحميد كان قد اعتاد استراق السمع من وراء الأبواب إبان طفولته ، إذ ذُكر أنه كان يتجسس آنذاك على اخوته واخواته[١٣] .

كانت الغرفة التي ينام فيها عبد الحميد موضع كتمان . وفي بعض الاحيان كان عبد الحميد نفسه ، لا يدري أين سينام وغالبا ما كان يقرر مكان نومه في اللحظة التي يدركه فيها النوم . وكان يرفض النوم في الطابق العلوي .وقبل أن يأوي إلى فراشه كان يفتش جناحه ، وبعد أن يطمئن منه يوصد الأبواب ويحتفظ بالمفاتيح عنده ، وخشية ألاّ يستغرق في نوم عميق كان يؤثر النوم بوضع من شأنه أن يجعل نومه خفيفا[١٤] .

وبلغ من خوفه أن حدوث أدنى ضجيج ، كصوت احتكاك اغصان يابسة ببعضها في حديقة مثلاً ، أو صفق باب بقوة عرضاً ، كان كافيا ليجعله يسرع في سحب مسدسه السريع الطلقات الذي كان يحتفظ به دوماً في جيبه[١٥] . واشتد خوف السلطان على حياته في أعقاب اغتيال القيصر الروسي الاسكندر الثاني في سنة ١٨٨١ ، إذ لم يعد يأوي إلى فراشه إلاّ بعد تفتيش دقيق للغرفة التي سينام فيها[١٦] .

لقد امتدت مخاوف عبد الحميد إلى الخوف من الظلام ، ولذلك كانت كل غرف قصره

تضاء من غروب الشمس حتى شروقها ، كما تضاء جميع ممرات وطرقات حدائقه بالمصابيح الكهربائية القوية لدرجة أنها تكاد تحيلها نهاراً من شدة ضوئها ، وإذا ما تصادف أن أُطفيء أحد المصابيح فذلك كفيل بأن يقود إلى فتح تحقيق دقيق بالحادث[١٧] . ودفع خوف السلطان من تعرضه الى محاولة اغتيال تحت جنح الظلام ، إلى امتناعه عن مغادرة مقره عقب غروب الشمس . وكان أشد ما يثير قلقه الانتقال بعربته في الليل ، كذلك كان الصمت والسكون من الامور التي يخافها عبد الحميد وتثير هلعه[١٨] وقد لفت انتباه عدد من الرحالة الامريكيين والاوربيين ممن سمح لهم بمقابلة السلطان نظرات القلق في عيني عبد الحميد .

أقدم عبد الحميد على اتخاذ سلسلة من الاحتياطات المشددة للحفاظ على سلامته الشخصية[١٩] . فكان الزوار يمنعون من تحريك اطرافهم بصورة مفاجئة إبان مثولهم بين يدي السلطان .

فعلى سبيل المثال حدث خلال لقاء عقد بين السلطان واحد الباشوات ان مد الباشا يده الى جيبه بحثا عن ورقة لها مساس بحديثه مع السلطان فما كان من الأخير إلا ان اسرع باخراج مسدسه ظناً منه ان الباشا كان يهم بسحب مسدس من جيبه . وتصادف في مناسبة اخرى أنه بينما كان أحد الزوار يتراجع إلى الوراء في ختام مقابلته مع السلطان أن زلّت قدمه وأوشك على السقوط على الأرض ، فما كان من عبد الحميد إلا أن جرى الى خارج الغرفة[٢٠] . واشرف عبد الحميد ـ ذات مرة ـ بنفسه على عملية استبدال انابيب مياه في قصره على أثر تلقيه تحذيراً بشأنها ، وزيادة في الحيطة أمر بأن تمد الانابيب الجديدة على عمق قليل من الأرض للحيلولة دون استخدامها في عملية اغتيال ضده[٢١] .

ومن التدابير الاخرى التي عمد اليها عبد الحميد لدرء خطر الاغتيال عنه ، ارتداؤه ثيابا واقية من الرصاص . وذهبت رواية الى القول أن عبد الحميد اعتاد على لبس درع من الزرد تحت ثيابه عندما كان يريد الظهور امام الناس منذ حادث اغتيال اليزابيت زوجة امبراطور النمسا والمجر[٢٢] في ١٠ ايلول سنة ١٨٩٨ في اثناء زيارتها الى سويسرا[٢٣] .

كذلك استبد الخوف بعبد الحميد من امكانية قتله بالسم ، وللحيلولة دون ذلك لجأ الى جملة تدابير احترازية من ضمنها أن طعامه كان يُعد في مطبخ خاص مستقل عن مطبخ السراي . وقد وصف احدهم ذلك المطبخ بكونه اقرب ما يكون الى مختبر . فكان له بابٌ محكم ، ونوافذه مصنوعة من قضبان حديدية . وبعد الانتهاء من طبخ الطعام كان يوضع على طاولة مغطاة بقطعة من السجاد يجري ختمها بالشمع . والاحتياطات نفسها كانت تسري على سلة الخبز وقارورة الماء . ولا تكسر الاختام إلا أمام أنظار عبد الحميد[٢٤] .

وزيادة في الحيطة كان عبد الحميد يأمر عدداً من الناس بمن فيهم الطاهي أن يذوقوا الطعام قبله[٢٥]. وفي بعض الاحيان كان يلقي بالطعام ـ على سبيل التأكد من خلوه من السم ـ الى كلابه وقططه قبل أن يتناوله .

وذُكر أنه كان يفضل أكل البيض لصعوبة دس السم فيه[٢٦] . وقد عَظم خوف السلطان من الموت مسموما بالطعام عقب حادث اغتيال قيصر روسيا الاسكندر الثاني في عام ١٨٨١ ، إذ بقي عدة ايام على اثره لا يقرب الطعام إلا إذا كانت أمّه بالتبني هي التي تولت اعداده[٢٧] . وبما أن رئيس الطباخين كان مسؤولا ليس فقط عن اعداد طعام السلطان بل السهر على صحته وسلامته ، فقد تبوأ مكانة كبيرة جداً في القصر . كذلك كان الحليب الذي يشربه السلطان يؤتى به من مزرعة نموذجية في قصر يلدز حيث تُعرض حراسة مشددة على الابقار ليلا نهاراً[٢٨] . وزيادة على ذلك كان اعداد القهوة والسكاير للسلطان يتمان أمام ناظريه[٢٩] . وقيل إن خوفه من التسمم جعله يفضل تدخين ارخص أنواع التبوغ علماً أن أجوده كان رهن اشارته[٣٠]. ودفعه الخوف من دس السم في مشروباته الى هواية اجراء التحاليل الكيمياوية . وحينما كان يُضْطَر الى تناول بعض الادوية من الحبوب فإنه يفرغ محتويات عدة علب حبوب ثم يأخذ حبة منها بعيون مغمضة وكأنه يسحب نصيباً[٣١].

ولم تسكن مخاوف عبد الحميد حتى من الثياب التي يرتديها . إذ روي أنه كان يعزف عن ارتداء القمصان الداخلية النظيفة التي كان يقوم بتحضيرها له يوميا جماعة من الاختصاصيين ، ويطلب بدلا منها قمصانا متواضعة مما يباع في الأسواق لعامة الناس ، لقلة احتمال كون الاخيرة مسمومة[٣٢].

لكن عبد الحميد لم يكن يستسلم دوماً لمشاعر الخوف التي كانت تسيطر عليه . ففي محاولته للتغلب على الخوف مال الى سماع الموسيقي ومشاهدة التمثيليات[٣٣].

وحري بالذكر أن عبد الحميد كان قد ابدىٰ اهتماماً بالروايات البوليسية . فقد عُثر في قصر يلدز عقب خلع عبد الحميد عن العرش سنة ١٩٠٩ على بعض الروايات البوليسية وقد كَتب عبد الحميد عليها عبارة (طولعت) وكان من بينها (اسرار سارق) ، و (الجناية المدهشة) و (الجنايات) ، وروايات آرسين لوبين[٣٤].

ويمكن اعتبار إسناد مهمة حراسة قصر عبد الحميد الى عناصر متنافرة خطوة قُصِدَ بها التقليل من امكانية اجتماع هذه العناصر ضد عبد الحميد[٣٥].

وإذ افتقد الطمأنينة في قصره ، كان من البديهي أن يستفحل خوفه في المناسبات

التي كان يُضطر فيها الى الخروج منه ، لا سيما ايام الجمع حيث كان عليه أن يؤدي صلاة الجمعة . فكان يستبد به الخوف خلال ذلك من احتمال إصابته بعيار ناري مباغت ، أو مرور عربته فوق قنبلة ، أو تعرضه لهجوم داخل عربته . وكان الشعور نفسه يعتريه عند اضطراره للخروج الى شوارع استانبول اثناء الأعياد ، ولذلك فإن الطريق الذي يسلكه موكبه كان يبقىٰ طي الكتمان[٣٦] . وبصورة تدريجية عزف السلطان عن الصلاة في الجوامع البعيدة عن قصره وقر رأيه اخيراً على بناء جامع الى جوار قصره ليؤدي فيه صلاة الجمعة وليرعىٰ الاحتفالات المقامة فيه بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف وعرف هذا الجامع بجامع الحميدية . اما صلاة العيد فكان يؤديها في ضوله باغجة ، في حين كان يذهب الى سراي طوب قبو لحضور الاحتفالات المقامة فيه بمناسبات اخرى .

وزيادة في الحيطة ، أوعز عبد الحميد بهدم مبنى يقع على مقربة من جامع الحميدية وكان يرتاده السياح الاجانب لئلا يستخدم في محاولة لاغتياله[٣٧] . وحتى في هذه المناسبات القليلة التي كان يتوجب عليه الخروج فيها ، لم تكن تخلو من احتياطات كزيادة اعداد الحرس على الطريق التي يسلكها موكبه ، وكان يُطلب من رجال الحرس أن يقدموا تعريفاً بأنفسهم قبل السماح لهم بأخذ مواضعهم قريبا من الموكب . وفوق ذلك اعتاد عبد الحميد على أن يجلس بعيداً الى الخلف من عربته محتضناً طفلاً صغيراً بهدف استدرار الرأفة ممن قد يقصدون الاعتداء على حياته[٣٨] .

وحدا خوف عبد الحميد من الاغتيال الى فرضه حظراً على استعمال الكهرباء في غير قصره ، لاعتقاده بوجود صلة بين مولد الكهرباء وبين الديناميت[٣٩] . ولم يُستثن من ذلك سوى الفنادق الحديثة التي شيدت في ضاحية بيرا . اما بصدد الهاتف ، فقد باءت بالفشل كل الجهود الرامية الى حمل السلطان على مد خط هاتفي الى قصره[٤٠] .

على أن مخاوف السلطان ـ برغم المبالغة فيها ـ كان لها بعض ما يبررها . إذ تعرض إلى محاولات اغتيال عديدة كاد البعض منها أن ينجح ، فعلى سبيل المثال ، جرت محاولة لاغتياله في سنة ١٩٠٤ ، عندما حاول أحد الضباط أن يطعنه بخنجر بينما كان خارجاً من مسرحه الخاص في قصر يلدز . كما حدثت محاولة اغتيال اخرى في السنة التالية ، أُستخدمت فيها مركبة مليئة بالديناميت . وقد انفجرت المركبة أمام جامع الحميدية حينما كان عبد الحميد يؤدي الصلاة داخله[٤١] . واسفر الانفجار عن وقوع اصابات عديدة ، واجراء تحقيقات كثيرة[٤٢] . ولعل من المفيد أن نشير الى أن عبد الحميد كثيراً ما اتهم مدحت باشا ورجاله بتدبير المحاولات لاغتياله[٤٣] . كما ساورته شكوك مفادها أن لولي عهده محمد رشاد ـ وهو نجل السلطان عبد المجيد ـ ضلعاً في محاولة اغتياله التي جرت في

سنة ١٩٠٥ ، حيث ابقاه رهن الاعتقال في قصر جراغان[٤٤].

اتسع نطاق مخاوف عبد الحميد لتشمل خوفه من خطر تنحيته عن العرش فأقدم منذ مستهل حكمه على اقصاء كل من كانت له صلة بخلع سلفيه السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس . كما أقال عدداً كبيراً من الوزراء[٤٥] . وأخذ ينظر الى وزرائه بشك ، وقد غدا بقاؤهم في مناصبهم منوطاً بامتثالهم لاوامر السلطان دون نقاش[٤٦] . ولم يَسمح باجراء اية مناقشات بينهم ، وإذا ما تناهى الى سمعه أن اثنين من وزرائه اجتمعا سراً ، فعندها تثور ثائرته ويستدعيان للتحقيق[٤٧] . وترتب على فقدان عبد الحميد الثقة بوزرائه ، أن اعتمد في الوقوف على اوضاع دولته على التقارير التي كان يرفعها الجواسيس اليه ، وكان عبد الحميد يكرس معظم وقته لقراءتها . إذ رُوي إنه كان ينكب على قراءة تلك التقارير منذ الساعة الخامسة صباحاً وحتى ساعة متأخرة من الليل ، باستثناء الفترات القصيرة التي كان يتناول فيها طعامه أو يخلد فيها الى الراحة[٤٨] .

وصلت مخاوف عبد الحميد من خطر خلعه حداً يفوق التصور إذ روي انه لم يطق بقاء كلمة (نخلع) الواردة في دعاء القنوت فاصدر اوامر تقضي بحذفها من الدعاء[٤٩] .

لقد كان في مقدمة المحاولات التي استهدفت تنحية عبد الحميد واعادة تنصيب اخيه السلطان المخلوع مراد الخامس ، تلك التي قام بها علي سعاوي وقد مُنيت بالاخفاق كما اسلفنا . وانطوى عبد الحميد بسببها على نفسه في قصر يلدز بعد أن زاد من تحصيناته حتى غدا أشبه ما يكون بقلعة حصينة . كما أُغلقت حدائق السلطان بوجه الشعب ، واقتصر ظهور السلطان أمام الجماهير على أيام الجمع[٥٠] .

اثار موت مراد الخامس في سنة ١٩٠٤ ـ بعد اثنين وعشرين عاماً أمضاها حبيس قصره ـ إرتياح عبد الحميد ، إذ احسّ أنه غدا شاغل العرش غير المنازع ، ولم يعد وكيلاً او مغتصباً للعرش[٥١] . لكن ما عكر صفوه اتساع نشاط المعارضة ضده ، تلك التي تألفت من اطراف عديدة بضمها بعض الزعماء العرب مثل اشراف مكة . وافلح عبد الحميد في تقليص نشاط هؤلاء عن طريق دعوته لهم للاقامة في استانبول حيث وضعهم تحت المراقبة[٥٢] . وحظر عليهم مغادرة استانبول سواء الى أوطانهم أو إلى أي مكان آخر[٥٣] .

كذلك عُدَّ بعض الزعماء المسلمين ممن سبق لعبد الحميد أن دعاهم الى استانبول واكرم مثواهم فيها ، بمثابة اشخاص غير موثوق بولائهم كما هو حال جمال الدين الافغاني الذي وضعت خطاباته وكذلك اتصالاته مع العاملين في حركة الجامعة الاسلامية تحت

مراقبة عبد الحميد[٥٤] ، في اعقاب وصول نبأ اغتيال ناصر الدين شاه ايران في ٦ مارس سنة ١٨٩٦ الى اسماع عبد الحميد[٥٥] .

على أن أشدّ ما كان يقض مضاجع عبد الحميد هو نشاط الاحرار في الدولة العثمانية الذين كانوا يناهضونه بسبب حكمه الاستبدادي ويرومون اعادة العمل بالدستور. وقد انبرى لمجابهة نشاطهم ففرض قيوداً شديدة على الحريات ، إذ منع مواطنيه من الخوض في الامور السياسية[٥٦] ، وقيد حرية التنقل حيث توجب على المواطنين أن يخطروا وزارة الداخلية عندما يُزمعون تغيير اماكن إقامتهم[٥٧] . كما وُضعت قيود على السفر لا سيما بالنسبة للضباط وكبار المسؤولين في العاصمة . ولم يُسمَح بسفر المرضى الذين كانوا يريدون الذهاب الى اوربا لاغراض العلاج . كذلك فُرض حظر على الاجتماعات كافة حتى تلك التي كانت تُقام للافراح كحفلات عقد القران او الختان[٥٨] . وفوق ذلك فُرضت قيود على الصحافة ومُنع دخول المطبوعات المعادية الى داخل البلاد .

اعتمد عبد الحميد في التصدي لنشاط المعارضة على الخفية وهي منظمة جاسوسية لعبت دوراً في الدولة العثمانية وُصف بأنه لم يسبق له مثيل[٥٩] .

كان قوام منظمة الخفية رجال البوليس السري. وقد وُضعت إدارتها في البداية تحت امرة أحمد جمال الدين باشا ، ومن ثم تحت امرة فهمي باشا واحتفظ الاخير بمنصبه حتى اقصائه عنه على اثر اندلاع ثورة ١٩٠٨ . وعُرف رئيس المنظمة أحياناً بـ (مدير سياسة المابين) واحيانا اخرى بـ (مدير السياسة الداخلية)[٦٠] . ومنذ سنة ١٨٨٠ أُستحدثت وزارة خاصة للبوليس وترتب على ذلك أن أُستبدل منصب مشير البوليس القديم الذي كان يدير بوليس استانبول تحت إشراف السر عسكر ووزير الداخلية ، بوزارة للبوليس حرص عبد الحميد على اسنادها الى أكثر امناء سره وثوقاً. وكان البوليس السري يتخذ مقره في القصر تحت اشراف وزير البوليس اسمياً ، لكنه في الحقيقة كان تحت اشراف السلطان . وهكذا احتفظ السلطان بقوتين للبوليس تتجسس احداهما على الاخرى ، علاوة على تجسسهما على المواطنين[٦١] .

وضمت المنظمة جيشاً من الجواسيس والمخبرين الذين انتشروا في الدوائر الحكومية كافة ، بل في كل مكان[٦٢] . حتى قال احد الظرفاء : « لو تشعبت في بلاد الدولة العثمانية طرق الحديد واخترقت سهولها وجبالها اختراق جند الخفية ، لكانت بلا ريب اغنى دول الأرض »[٦٣] . وتولت المنظمة مهمة مراقبة المطبوعات المحلية والاجنبية ، ورفع خلاصات عنها الى المراجع العليا[٦٤] ، واعداد تقارير عن اعمال وآراء رجال الطبقة

البيروقراطية وادراجها في مذكرات تستخدم إما للترقيات أو لإنزال العقوبات . وامتد نشاط المنظمة ليشمل مراقبة رجال الدين[٦٥] ، بل سائر المواطنين . حتى رُوي أن الناس لم يسلموا من التجسس عليهم حتى في بيوتهم ، وقيل إنه إذا شوهد ثلاثة اشخاص يتحدثون سوية في شارع فإنّ أحدهم جاسوس بالتأكيد[٦٦] . وأنه إذا اجتمع ثلاثة اشخاص في مقهىٰ فلا بد أن يخامر كل واحد منهم الشك بأن زميليه جاسوسان ، وغالبا ما كان يصدق حدسه[٦٧] . بل بلغ من تفشي الجاسوسية أن كان هناك جواسيس على الجواسيس[٦٨] .

وكانت معظم الاعتقالات تتم ليلا[٦٩] . وغدا الجواسيس يحظون بمكانة ممتازة ، إذ ألفوا فئة متنفذة قوامها صعاليك فاسدون لا ينجو المرء من شرهم مهما علت منزلته او ثبتت براءته إلا بتقديم رشوة لهم[٧٠] . بل أن بعضا من علية القوم ووجائهم انخرطوا في الجاسوسية طمعاً بالمال والهبات ، حتى رُوي أن الولد غدا ينم عن ابيه[٧١] . والمواطن يتجسس على جاره[٧٢] . وتطوع بعض الناس في الجاسوسية طمعاً بكسب ود السلطان ، بل بلغ من تفشي الجاسوسية أن شبهها احدهم بالوباء، حيث كان البحث جارياً في كل مكان عن المجرمين السياسيين[٧٣] . واشاع ذلك جواً من الفزع والرعب في البلاد ، انعكست آثاره على حرية التعبير . فكان الخوف من وشايات الجواسيس قد كمم الافواه ، واضطر الناس الى أن يقولوا بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وأن يتقبلوا الجور والارهاب بصبر واستكانة خشية أن يُساقوا الى المنافي والسجون[٧٤] .

غدت الجاسوسية وسيلة من وسائل الايقاع بالخصوم ، حيث أصبح في وسع أي مواطن أن يبعث برسالة إلى عدو له وبتوقيع مزور، يضمنها اشارات حول مؤامرة مزعومة ، ثم يثير شُبهات حول الاخير لدى بعض الجواسيس ، وهذا ما يؤدي الى توقيف مستلم الرسالة وتوجيه اتهامات خطيرة ضده ثم يزج به في السجن . وهكذا انعدمت الطمأنينة بين الناس لدرجة أن المواطن الذي كان يبيت بين أفراد أسرته لم يستبعد مداهمة الجواسيس لداره ليلا ، حيث ينتهي به المطاف إما الى زجه في السجن، أو نفيه الى بقاع نائية[٧٥] .

كذلك اصبحت الجاسوسية وسيلة لابتزاز اموال الدولة والمواطنين[٧٦] . وبديهي أن نشاط الجواسيس كان يستفحل في اوقات الاضطرابات ، كما حدث مثلا اثناء المذابح التي جرت في ارمينيا سنة ١٨٩٤ . إذ اشتد نشاطهم داخل القصر وخارجه ، حتى أن المباريات التي كان يقيمها فتيان السلك الدبلوماسي الاجنبي في استانبول غدت موضع شبهاتهم ، إذ رُوي أن عدد الجواسيس الذين حضروا حفل افتتاح فندق جديد في

استانبول فاق عدد المدعوين ، وحدث أن عدداً من الحفلات الراقصة التي كان بعض الاثرياء اليونانيين يزمعون إقامتها في دورهم ، أُلغيت بامر من رئيس الوزراء بدعوى أنها سَتُتخذ غطاءً لمؤامرات ارمنية[٧٧] .

لم يقتصر نشاط الجاسوسية داخل الدولة العثمانية وإنما تعداه الى خارجها فقد اعترف عبد الحميد بوجود عملاء له في طهران[٧٨] . كما كان منير باشا سفيره في باريس يزوده بتقارير عن نشاط المنفيين الاتراك في فرنسا[٧٩] . واشار عبد الحميد في معرض حديثه عن مؤتمر عقده الشباب الاتراك في جنيف الى أنه حصل على اسماء سبعة عشر عضواً ، على الرغم من طابع السرية الذي كا يسود المؤتمر[٨٠] .

في ظل الطروف التي أشرنا اليها ، ضاق دعاة الحرية ذرعاً من العيش داخل الدولة العثمانية ، واضطروا الى الفرار طلبا للطمأنينة ، وبحثاً عن فرص أفضل يمارسون فيها نشاطاتهم بعيداً عن أعين الرقابة ، وهذا ما حمل عبد الحميد على فرض قيود مشددة على السفر كما اسلفنا ، والى فتح تحقيقات ـ حسبما رُوي ـ مع جيران الفارين[٨١] . وكان من بين الفارين عدد من اعضاء الاسرة الحاكمة الذين بلغ من سخطهم على الوضع أن دبر بعضهم محاولة انقلاب ضد عبد الحميد في أواخر سنة ١٩٠٢ ، ولو أنها منيت بالاخفاق[٨٢] .

وقد استأنف الاحرار نشاطهم خارج الدولة العثمانية ضد عبد الحميد فنددوا بحكمه عن طريق مطبوعاتهم التي كان يتسرب بعضها الى داخل الدولة العثمانية ، مما دعا الاخيرة الى ان تضاعف عدد الجواسيس[٨٣] . وبمرور الوقت اتسع نطاق مخاوف عبد الحميد من خطر تنحيته عن الحكم لتشمل خوفه من قيام الجيش بثورة ضده ، مما دفعه على أن يعمل سراً وبدعم من أعوانه إلى احباط المساعي التي كان يبذلها الضابط الالماني فون درغولتز لتحديث الجيش العثماني ، وعدم السماح بتقويته الى الحد الذي يغدو معه خطراً على السلطان[٨٤] .

وفي محاولة للاحتفاظ بولاء الجيش مال عبد الحميد الى تعيين قادته من الرجال الموثوق بولائهم له . وأولى عناية بالقطعات العسكرية التي كانت تتولى حراسة قصر يلدز ، فاتجه الى تشكيلها من عناصر مختلفة للحيلولة دون اتفاقها ضده . وبلغ من اهتمامه بتشديد قبضته على الجيش ، أنه لم يسمح باجراء أية تغييرات على الاوامر العسكرية وحتى في الشؤون الثانوية ، إلا بعد اشعاره بذلك . على أن اهتمام السلطان إنصب بوجه خاص على الاحتفاظ بولاء القوات المرابطة في العاصمة له شخصياً وجعلها مستعدة للدفاع عنه ، في حين لم يبد الاهتمام نفسه إزاء غيرها من القوات ، بل كان يؤثر

بقاء الاخيرة في حالة من السبات[٨٥] .

اتبع عبد الحميد اسلوب منح ترقيات لضباط الجيش كسبيل للابقاء على اخلاصهم له ، كما حدث مثلاً في تموز سنة ١٩٠٨ وقبيل نشوب ثورة عام ١٩٠٨ حينما منح ترقيات لضباط الاسطول ولضباط الجيشين الثاني والثالث[٨٦] .

وقبل أن نختتم بحثنا عن جهاز الجاسوسية لا بد أن نشير إلى أن عدد الجواسيس كان قد قدر بعشرين الف جاسوس[٨٧] . فيما بلغت نفقاتهم مليون جنيه سنويا[٨٨] ، وهو مبلغ يزيد على مخصصات وزارتي الداخلية والمعارف مجتمعتين[٨٩] .

وبصدد موقف عبد الحميد من الجاسوسية فقد بارك نشاطها وبلغ به الحال أنه كان يدفع وزراءه الى أن يتجسس بعضهم على بعض ، في محاولة منه للوقوف على أسرارهم[٩٠] . واعترف عبد الحميد بامتلاكه جهاز جاسوسية ضخماً ، ودافع عنه وشدد على ضرورته بقوله « لا نستطيع الاستغناء عنه ، لا أظن أن في أي بقعة من بقاع الأرض دسائس ومؤامرات مثل التي تحاك في بلادنا » واشاد بكفاءته بقوله « انه كان منظماً الى حد أنه لم يكن يغيب عن نظره أي شيء مما يجري داخل الدولة العثمانية ، وأنه مدين بحياته ليقظة رجاله المخلصين »[٩١] اسفر نجاح ثورة عام ١٩٠٨ عن حدوث تغييرات مهمة في الدولة العثمانية ، كان من بينها إلغاء جهاز الجاسوسية وتسريح العاملين فيه . كما تبددت في الوقت نفسه بعض من مخاوف عبد الحميد ، إذ اعتقد أن تلك المخاوف لم يعد لها ما يبررها وأنه بات في حماية الأمة بأسرها ، وعندها أخذ يكثر من الظهور في الاماكن العامة ، ويؤدي الصلاة في جوامع استانبول الكبيرة[٩٢] .

نستخلص مما تقدم أن الظروف التي رافقت حكم عبد الحميد كانت صعبة ومما زاد في الطين بلة ، كون عبد الحميد إنساناً متشككاً وذلك ما دفعه الى الاعتماد على جهاز الجاسوسية وسيلة للمحافظة على عرشه ، ولرصد نشاط خصومه . لكنه أسرف في الاعتماد على جهاز الجاسوسية بحيث صار هذا الجهاز طابعا يميز حكمه . واستعمل احياناً وسيلة لايذاء المواطنين . لكن هذا الجهاز الذي يُحتمل أن له فضلاً في اطالة حكم عبد الحميد ، مني بالفشل اخيراً . فبعد أن تفاقمت المعارضة ضد عبد الحميد وخرجت من مرحلتها السرية الى العمل العلني ، لم يستطع نظام الحكم أن يصمد امام العاصفة واضطر الى أن يستجيب لمطالب جمعية الاتحاد والترقي والتي كان من ضمنها اعادة العمل بالدستور والغاء جهاز الجاسوسية . وهكذا طويت صفحة ذلك الجهاز السيء الصيت .

الحواشي

(١) للسهولة سنكتفي بتسميته بالسلطان عبد الحميد .

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني ، **مذكراتي السياسية ١٨٩١ - ١٩٠٨** ، الطبعة الثانية ، بيروت: ١٩٧٩، ص ١١ .

(٣) جون هاسلب ، **السلطان الأحمر عبد الحميد** ، تعريب فيليب عطا الله ، بيروت : ١٩٧٤، ص ٢٦٩ .

(٤) للاطلاع على تفاصيل المحاولات التي استهدفت اعادة مراد الخامس إلى العرش انظر رسالتنا للماجستير الموسومة « العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ - ١٩٠٩» وهي رسالة غير منشورة قدمت إلى جامعة بغداد عام ١٩٧٥، ص ص ٧٨ - ٨٠ .

(٥) صديق الدملوجي ، **مدحت باشا** ، بغداد: مطبعة الزمان ، ١٩٥٣، ص ١١٢ .

(٦) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ٢٧٦ .

(٧) Eversley; **The Turkish Empire its Growth and Decay,** London: 1918, p.316.

(٨) Gordon Waterfield, **Layard of Nineveh,** London: 1963, p.378.

(٩) السلطان عبد الحميد الثاني ، **مصدر سابق**، ص ٧٩ .

(١٠) ماري ملز باتريك ، **سلاطين بني عثمان الخمسة** ، تعريب حنا غصن وآخرين ، ١٩٣٣، ص ١٠٠ - ١٠١ .

وقد نفى عبدالحميد بشدة أنه انتقل إلى قصر يلدز لأنه أكثر أمانا بقوله : « إنه كان بإمان السفن ان تضرب قصر يلدز بسهولة وزعم ان سبب انتقاله يعود إلى ان قصر ضوله باغجه كان مليئا بالذكريات المؤلمة لعمه عبدالعزيز واخيه مراد ، اضافة إلى أن قصر يلدز يوفر له الهواء النقي الصحي . انظر: السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٢١٩ - ٢٢٠. **المصدر السابق** .

(١١) G. Waterfield, **op.cit.,** p. 378.

(١٢) الماوتلن ، **عبد الحميد ظل الله على الأرض** ، ترجمة راسم رشدي القاهرة : ١٩٥٠، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(١٣) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ٢٠ ، ص ٥٩ .

(١٤) عثمان نوري ، **عبد الحميد ثاني ودور سلطنتي حياة خصوصية وسياسية سي** ، درسعادت: ١٣٢٧، ص ٤٨٣ .

(١٥) هاسلب ، **مصدر سابق**، ص ١٥٤ .

(١٦) **المصدر نفسه** ، ص ١٩٧ .

(١٧) عثمان نوري ، **مصدر سابق** ، ص ٤٨٣ .

(١٨) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ١٧٩، ص ٢٧٥ .

(١٩) Elizabeth Wormeley Latimer, **Russia and Turkey in the Nineteenth Century,** Chicago, 1893, p.355.

(٢٠) وتلن، **مصدر سابق**، ص ١٦٥ .

(٢١) **المصدر نفسه** ، ص ١٢٠ .

(٢٢) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ٢٧٦ .

(٢٣) **The New Encyclopaedia Britannica,** Vol. III, p.854.

(٢٤) عثمان نوري، **مصدر سابق** ، ص ٤٨٣ .

(٢٥) **مذكرات آغاخان** ، نقلته إلى العربية دار العلم للملايين ، بيروت : الطبعة الأولى ، ١٩٥٩، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢٦) عثمان نوري ، **مصدر سابق** ، ص ٤٨٢ .

(٢٧) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ١٩٧ .

(٢٨) **المصدر نفسه** ، ص ١٨٣ .

(٢٩) عثمان نوري ، **مصدر سابق** ، ص ٤٨٧ .

(٣٠) وتلن ، **مصدر سابق** ، ص ١٦٠ .

(٣١) **المصدر نفسه** ، ص ١٦١ .

(٣٢) **المصدر نفسه** ، ص ١٦٠ .

(٣٣) عثمان نوري ، **مصدر سابق** ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

(٣٤) **جريدة صدى بابل** (بغداد)، السنة الأولى ، العدد ٢٣، ٢١ كانون الثاني ١٩١٠ .

(٣٥) وتلن ، **مصدر سابق** ، ص ٩٥ .

(٣٦) **المصدر نفسه** ، ص ١٢٣ .

(٣٧) عثمان نوري ، **مصدر سابق**، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٣٨) وتلن ، **مصدر سابق** ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣٩) باتريك ، **مصدر سابق** ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٤٠) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ٢٨٨ .

(٤١) **االمصدر نفسه** ، ص ٢٩٥ .

(٤٢) عبد العزيز القصاب ، **من ذكرياتي** ، الطبعة الأولى ، بيروت: مطبعة فضول ١٩٦٢، ص ص ٣٥ - ٣٧ .

(٤٣) السلطان عبد الحميد الثاني ، ص ٧١ ، **المصدر السابق** .

(٤٤) عبد العزيز القصاب ، **مصدر سابق** ، ص ٣٧ .

(٤٥) Edwin Pears, **Forty Years in Constantinople,** Second edition, Essex, 1915, p.106.

(٤٦) **Ibid,** p.108.

(٤٧) Eversley, **op.cit.,** p.316.

(٤٨) وتلن ، **مصدر سابق** ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٤٩) **مجلة المنار** ، (مصر)، مجلد ٩ ، جزء ٨، أيلول ١٩٠٦، ص ٦١٤ - ٦١٥ .

(٥٠) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٥١) وتلن ، **مصدر سابق** ، ص ١٨٢ .

(٥٢) جورج انطونيوس ، **يقظة العرب**، تعريب علي حيدر الركابي، دمشق: مطبعة النرقي، ١٩٤٦، ص ٧٠ .

(٥٣) أمين ابو الشعر (الناشر)، **مذكرات الملك عبدالله**، الطبعة الثانية، عمان: ١٩٤٧، ص ٣٩ .

(٥٤) وتلن ، **مصدر سابق**، ص ١٧٥ .

(٥٥) رشيد الذوادي ، **رواد الاصلاح** ، الطبعة الأولى ، تونس: الشركة التونسية لفنون الرسم، ١٩٧٣، ص ٧١ .

(٥٦) عبدالعزيز القصاب ، **مصدر سابق**، ص ٤٦ .

(٥٧) Stanford J. Shaw and Ezel Kural **Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey,** Vol.II, Cambridge University Press, 1977, p.215.

(٥٨) محمد روحي بك الخالدي ، **أسباب الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة** ، مصر: ١٣٢٣، ص ١٥١ .

(٥٩) **أحمد حامد ومصطفى محسن** ، **توركيا تاريخي** ، الطبعة الأولى ، استانبول: ١٣٢٨، ص ٦٠٩ .

(٦٠) سليمان البساني ، **عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده** ، تحقيق خالد زيادة، الطبعة الأولى ، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ص ١٤٥ .

(٦١) Shaw, **op.cit.,** p.215.

(٦٢) Sydney Nettleton Fisher, **The Middle East,** London: 1966, p.329.

(٦٣) سليمان البستاني، **مصدر سابق**، ص ١٤٧ .

(٦٤) **المصدر نفسه** ، الصفحة نفسها .

(٦٥) عبدالعزيز القصاب، **مصدر سابق**، ص ٢٩ .

(٦٦) Eversley, **op.cit., p.348.**

(٦٧) وتلن ، **مصر سابق** ، ص ١٦٥ .

(٦٨) مايلز ، **مصدر سابق** ، ٩٥ - ٩٦ .

(٦٩) **المصدر نفسه** ، والصفحة نفسها .

(٧٠) انطونيوس ، **مصدر سابق**، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٧١) ولي الدين يكن ، **المعلوم والمجهول** ، مصر: ١٩٠٩، ج ١، ص ٤٢ .

(٧٢) أرنست أ. رامزور، **تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨**، ترجمة صالح احمد العلي بيروت : ١٩٦٠ ، ص ٤٧ .

(٧٣) احمد حامد ومصطفى محسن ، **مصدر سابق** ، ص ٦١٠ .

(٧٤) سليمان فيضي ، **في غمرة النضال** ، بغداد: مطبعة شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٩٥٢، ص ٤٩ .

(٧٥) قدري قلعجي ، **مدحت باشا** ، ١٩٤٧، ص ٩٧ .

(٧٦) سليمان البستاني ، **مصدر سابق** ، ص ١٤٥ .

(٧٧) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ٢٥٥ .

(٧٨) السلطان عبد الحميد الثاني، **مصدر سابق** ، ص ١٢١ .

(٧٩) هاسلب ، **مصدر سابق** ، ص ٢٩٦ .

(٨٠) السلطان عبد الحميد الثاني ، **مصدر سابق** ، ص ٤٦ .

(٨١) امين ابو الشعر ، **مصدر سابق** ، ص ٤٠ .

(٨٢) رامزور ، **مصدر سابق**، ص ١٠٤ .

(٨٣) حسين لبيب ، **تاريخ الاتراك العثمانيين**، القاهرة: ١٩١٧، ج ٣ حتى ٧٠ .

(٨٤) انطونيوس ، **مصدر سابق**، ص ٧٥. وقد ذكرت رواية أن عبدالحميد لم يبد اهتماما بتطوير الاسطول خوفا من قيامه بحركة ضده مما دفعه - حسب قول الرواية - إلى أن يهمل اصلاح قطع

الاسطول وعدم تشجيعه الاسطول على القيام بأية مناورات انظر مايلز ، **مصدر سابق** ، ص ٩٥ فيما اشار اكثر من مصدر ألى ان عبدالحميد اهتم بتطوير الاسطول ، راجع :
مجلة المشرق (بيروت)، السنة الثامنة ، العدد ١ ، كانون الثاني ١٩٠٥، ص ١ وكذلك Fisher, **op.cit, p.329**

(٨٥) احمد حامد ومصطفى محسن ، **مصدر سابق**، ص ٦٠٩ .

(٨٦) Pears, **op.cit.,** p.234.

(٨٧) هاسلب ، مصدر سابق، ص ٣١٤ .

(٨٨) حسين لبيب، **مصدر سابق**، ص ٦١ .

(٨٩) سليمان البستاني ، **مصدر سابق** ، ص ١٤٩ .

(٩٠) هاسلب ، **مصدر سابق**، ص ٢٨٥ .

(٩١) السلطان عبد الحميد الثاني، **مصدر سابق**، ص ٧٢ ، ص ٢٢١ .

(٩٢) هاسلب، **مصدر سابق**، ص ٣١٣ .

إعلان

بناء على قرار هيئة التحرير، صدرت مجلة العلوم الاجتماعية باللغة العربية فقط، مع ملخصات بالانجليزية للبحوث المنشورة .

أما البحوث التي ترد المجلة بالانجليزية فستنشرها المجلة ، تبعا لقواعد النشر وللجدول الزمني المعمول به لنشر الابحاث، وذلك في اعداد خاصة باللغة الانجليزية على مدار السنة .

SULTAN ABDUL - HAMEED II AND THE SYSTEM OF ESPIONAGE IN THE OTTOMAN EMPIRE

J. Hassan

The reign of Sultan Abdulhamid II which covered the period from 1876 to 1909 was characterized by a number of severe disturbances in a number of areas. The Ottoman Empire. Faced internal and external threats due to its general weakness.

In order to guarantee his personal safety, to hold power as long as possible, and to the stop increasing influence and activities of the opposition, Sultan Abdulhamid relied upon an espionage system completly. This became one of the characteristics of his reign.

Abdulhamid's spies did not restrict themselves to chasing the enemies of the empire but exercised their powers against all the citizens of the country. They did not hesitate to threaten anyone's security or contentment.

Abdulhamid's doubts played a great role in his increasing dependence on espionage services. However, if we can justify some of this behaviour, we can not justify all of it since it was an result of the Sultan's imagination and illusions.

The espionage system which the Sultan established failed to achieve its objectives. In 1908 he faced a revolution which obliged him to accept the constitution.

In the following year he faced another revolution which ended his reign.